قصة قصيرة

سحابتان لسماء الموصل

مهداة إلى د. عماد الدين خليل الإنسان

بقلم: نعيم الغول
الأردن

عيناه تتابعان حركات فم ويد رئيس الجامعة، لكن ذهنه يتابع صور الموصل. تقفز الصور ... تتوالى .. كمقص الرقيب يقطعها صوت الرئيس:"لا بد يا دكتور أن تبقى بيننا لتحاضر هذا المساق الصيفي . أراك لا تجيب ؟ ألا شأن لي عندك ؟ ألا يحق لنا أن نستفيد من علمك في النقد واللغة والتاريخ والأدب؟ لا يادكتور عماد .. هذا المساق الصيفي لن يمر دون وجودك بيننا".

الموصل لم تعد بنايات وشوارع وأزقة وأحياء وأطفالا وسيارات. الموصل عروق تحترق شوقا .. دم يغلي فيها . تاريخ .. حب .. عشق ... حضارة.

يتأوه:"يا ذات الربيعين، ألا زلت تغسلين قدميك بماء دجلة ؟؟!"

يغمض عينيه . تتراءى له الموصل امرأة تختزن في ذاكرتها صورة رجل واحد فقط يرحل من بلد إلى بلد .. يعلم ويدرس ويصادق ويدعو ويقف مفتوح الصدر يدافع عن دينه ولغته وأدبه وقيمه.

صوت الرئيس يعود إلى تقطيع أوصال الرؤى .. يدخل إلى مسمعه:"لم تجب بعد؟ يتناوشك التردد؟".

يقف الصوت على مشارف الأذنين لا يجاوزهما . يلح الصوت"دكتور عماد.. ستصرف لك الجامعة مكافأة ضخمة زيادة على ما هو مقرر للمساق الصيفي!".

يبدأ عقله بالدوران مع الكلمات ليستوعب العرض السخي .

يتوجه الرئيس إلى الباب مغادرا مكتب الدكتور عماد وهو يقول:"أرجوك فكر بالأمانة التي يحتويها صدرك تجاه الأجيال التي تحبك هنا . تجاهنا نحن الذين تعلمنا منك . لا تخذلنا أرجوك".

تتبختر الموصل .. تمسح على قلبه.. تسأله:"أمانة ؟ من أولى بالمعروف؟".

يقف احتراما للرئيس ولسانه يتمتم بالكلمات:"العفو، أستغفر الله!".

كلمات المديح تستحيل نصل سكين يغوص في أعماقه .. يمزقه . يخرج بخياله من أقطار الأرض والسماوات .. كأنه يطلع على ميزان أعماله . ينخلع قلبه إذ يرى كلمات الإطراء وقد صارت جبالا في كفة، وفي الكفة الأخرى تطيش الأعمال الصالحة . يدفن رأسه بين ذراعيه:"ما أنت يا عماد إلا طالب علم . لا زلت تتعلم . وهم لا يريدون أن يفهموا ذلك . رب اغفر لي ولهم ."سبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا".

صدى صوت الباب الذي أغلق للتو يتردد في رأسه . أبواب الذكريات تفتح.. يسائل نفسه:"كم سنة مرت دون أن تفتح حقائبك، وتخرج ملابس السفر وتعلقها في خزانة ملابسك في الموصل؟ كم تمنيت أن يغطيها الغبار هناك وأنت تطالعها راجيا ألا يأتي السفر؟".

تأتيه الموصل .. تراوده:"أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟".

ضحكة مريبة تنبعث من عقله . (لا تنس المكافأة . ستنفع في الأيام العصيبة القادمة . ما يدريك أن الخضرة ماتت، واصطبغ وجه الموصل بلون الهشيم؟! ظل الدينار يقي من حر النهار).

يجفل حين يسمع صوت الهاتف المتنقل . صوت امرأة يأتيه .. المرأة .. امرأته .. الوحيدة من بين كل الناس التي تحمل عبق الموصل .. أم العيال .. سحابة تنتظر سحابة لتبرقا معا وعدا باللقاء . وعدا بمطر يسابق الدمع الذي يسيل من عيني الموصل فلعل دجلة يفيض فيغرق اللصوص الذين لونت أعينهم زرقة البحار البعيدة .

يتهدج صوته . لا يدري ما يقول . تبادره بالسؤال:"متى تأتي؟".

كقائد يوشك أن ينكس راياته يقول:"رئيس الجامعة يريدني أن أبقى هذا الصيف أيضا".

قلبه الذي اعتاد أن ينقل إليه كل مشاعرها يقفز إلى عنقه محتجا، يلتصق بحنجرته .. يكاد يخنقه حين أحس بنبرة خيبة أمل تسللت رغما عنها إلى صوتها . يخجل من قلبه ، يهدئ من روعه . يقول لها:"أيغضبك هذا ؟ لقد وعد بمكافأة كبيرة . والحال كما تعلمين في العراق؟".

إجابتها كما توقعها:"عماد، حلفت عيوننا ألا نرى إلا ما ترى، وإن كنا – والله – مشتاقين ؟".

هي كما هي. تنكر ذاتها.. تبحث عما يرضيه . لكنه يعرف أنها مستاءة وحزينة. ويعرف أن الموصل امرأة تختزن في ذاكرتها صورة رجل واحد .. وتنتظره.

يدق قلبه بعنف . يهدد بالتوقف عن الحركة .. عن النبض . فيسارع إلى القول:"يا بعد عيني! حر النهار بقربكم ولا ظل الدينار بعيدا عنكم). فلتنتظر الموصل سحابتين لسمائها، وليعد دجلة طوفانه، فالمطر – إن شاء الله – قادم!". ■